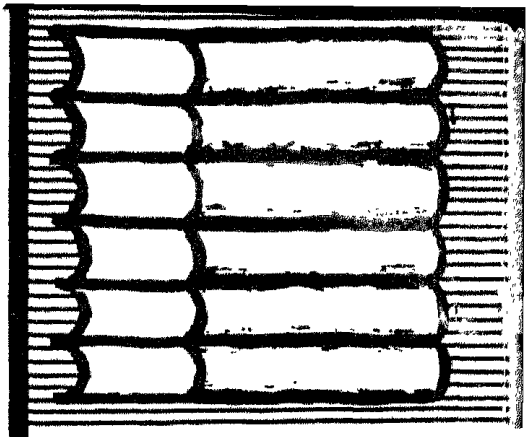

دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وزارة الأوقاف

الربا بين الاقتصاد والدين

عز العرب فؤاد

العدد الثالث عشر

الربا
بين
الاقتصاد والدين

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

«١٣»
السنة الثانية
١٥ من شعبان ١٣٨١ هـ
٢١ من يناير ١٩٦٢ م

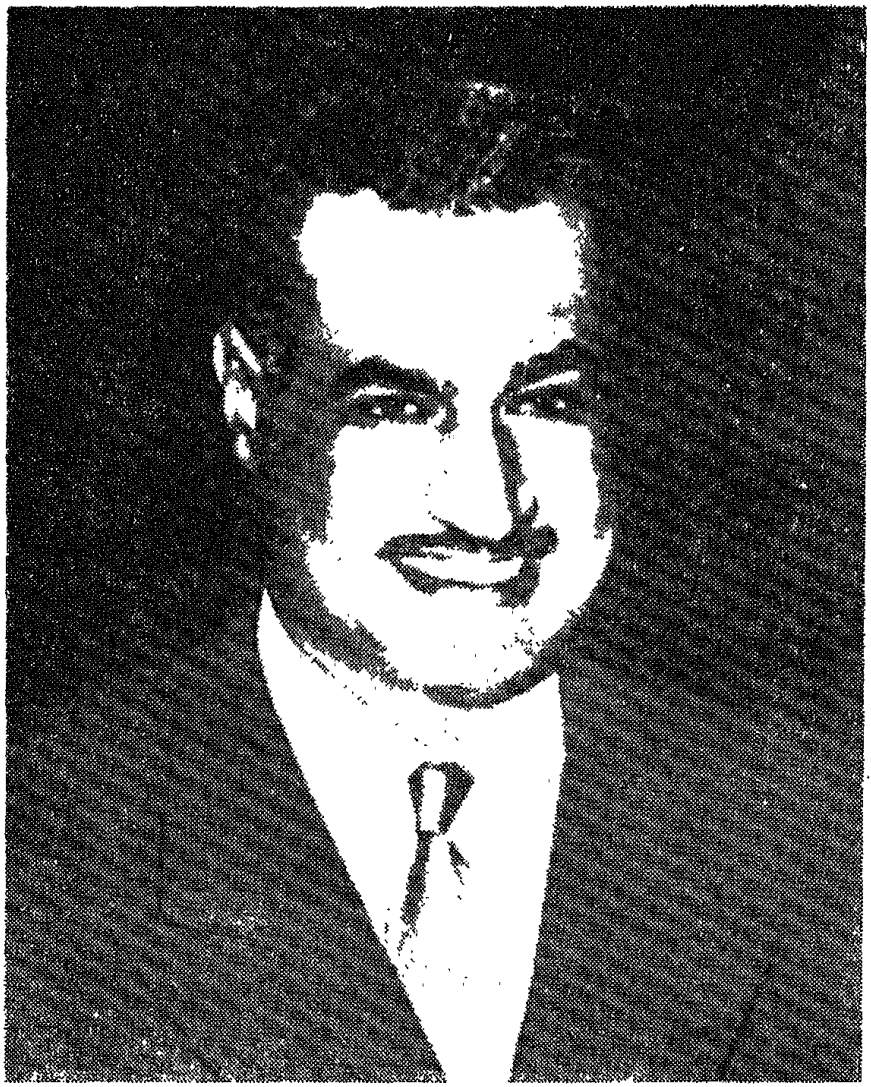

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربَّنَا افتَحْ بَيْنَنَا وبَيْنَ قَومِنَا
بالحَقِّ وأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ »

« صدق الله العظيم »

مقدمة

انى أتهم الاستعمار وحده بأنه الذى روج للربا فى بلادنا ، وعمل على تثبيت أوتاده ، وأرسى قواعد بنيانه حتى صارت الامور الى ما صارت اليه ، بعد أن تخلصت بلادنا الشرقية منه منذ أن دخلها الاسلام وقضى عليه بأساليبه قضاء مبرما .

لقد فهم المستعمر أن فى انتشار الربا فى بلادنا ، قضاء على أصل من أصول الحياة الكريمة التى تقوم على المحبة والعطف والاحسان ، وتفريقا واضحا بين أفراد المجتمع ، لأنه بسيادة هذا النوع من التعامل المشين تنحل رابطة المواطنين القائمة على التعاطف والبر والتراحم . ويعنى فى الوقت ذاته قيام صلة أفراد الأمة الواحدة على أساس مادى بحت ، فليست هناك ثمة رابطة الا تلك الدراهم التى تزداد بالأخذ فى حل مشكلة أو للتخلص من أزمة للانتشال من ورطة .. وحينئذ يكون المستعمر قد نجح فى تفريق الأمة النجاح المنشود .

لقد ساهمت الشعوب المغلوبة على أمرها فى محاربة الربا وقاومته مقاومة عنيفة ، الا أن هذه المقاومة لم تدم طويلا ، فلم يقدر لها الصمود أمام الحاجة والبؤس والفاقة التى أصبحت البلاد ترزح فيها وترسف فى أغلالها .

واننا فى مصر خاصة حينما نذكر المقاومة الشعبية التى حمل لواءها الزعيم الشاب مصطفى كامل نجد أن لم تخل من محاربة

الربا . واننا نعلم أن المقاومة الشعبية ضد الاحتلال البريطانى كانت ذات أشكال وصور شتى ، وكانت احدى هذه الصـــور تستهدف القضاء على الربا الذى كان سببا مبـــاشرا فى احتلالها نتيجة لقروض الخديوى اسماعيل فحينما فتح باب المناقشةلمسألة الربا على مصراعيه فى ســـــنة ١٩١٢م فى الصحف وفى الأندية المختلفة ، والقيت فيها سلسلة من المحاضرات عرضت فيها مختلف الآراء فى الموضوع من حيث تحقيق المبدأ الدينى التقت آراء أكثـر الحاضرين على رفض الربا من الوجهة الدينية .

لكن الضغط الذى كان الشعب المصرى تحت تأثيره ، والحاجة التى أخذت بخناقه ، كانا هما السبب فى قبـــول الربا ، وانهارت المقاومة الشعبية وأصبح سعر الفائدة سائدا ومتداولا فى المصارف الأجنبية والمصرية فى بلادنا بنص القانون .

أما وقد تخلصنا الآن من الاستعمار والنفوذ الأجنبى ، وأصبحت بلادنا تتجه اتجاها مستقلا فى نهضتها لا تنحرف ولا تنحـــاز ، واتخذت الحكومة برنامجا للنهوض أساسه الاشتراكية الديمقراطية التعاونية فان من واجبنا أن نجدد الصيحة وأن نرفع صوتنا الى المسئولين والى المصلحين الاجتماعيين محاولين بسط قضية الربا بطريقة اكثر وضوحا وشمولا خاصة وأن الاتجاه الاشتراكى بحكم تطبيقه فى الواقع العملى لا بد أن يقضى على الربا ، هذا فضلا عن أن الربا كما قدمنا أثرمن آثار الاستعماريجب علينا ازالتهواستئصاله من مجتمعنا بعد أن تخلصنا من الاستعمار وأذنابه .

ويجب أن نقرر أنه ما من دولة أقامت اقتصادها على الربا ، الا واعترتها أزمات اقتصادية كبرى أثرت تأثيرا بالغا فى حياتهـــا ، وأن الأزمة العالمية التى حدثت بين سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ م كـان سببها الربا ، والربا فقط . وماخفت حدتها الابتدخل الحكومات مثل أمريكا ومصر .

فلقد أعلن الرئيس روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق أن أزمة أمريكا التى تعانيها وقتئذ لا سبيل الى التخلص منها الا باسقاط الربا ، وقد اسقط الربا فعلا بعد هذا التصريح .

وكذلك فعلت مصر فى تسويات الديون العقارية ، فان العلاج كان باسقاط الربا جله .

وان الرئيس جمال عبد الناصر الذى طهر البلاد من الاستعمار وأعوانه ، وأمم القناة ومصر البنوك والشركات الأجنبية وتحدى دول العالم الكبرى وما زال يحارب أطماعها قد أعلـــن فى خطابه التاريخى اسقاط سعر الفائدة بالنسبة للفـلاحين فألغى الربا فى بنوك التسليف الزراعية والتعاونية متجها نحو الاشتراكيةالمعتدلة فى تحقيق العدالة الاجتماعية .

وبعد : فاننى بهذا الجهد المتواضع الذى أقدمه للقارىء بين دفتى هذا الكتاب ، أكون قد اديت بعض الواجب الذى فرضـــته علينا العقيدة وحب الخير لبلادنا .

والله أسأل أن يحتسبه عملا متقبلا .

المؤلف

الربا والأديان الثلاثة

« ليس هناك منطق أقـــوى من ذلك الذى
يقرر أن أبغض الاشياء هو الربا الذى يستدر
الربح من المال ذاته » . « أرسطو »

الربا والفطرة السليمة قبل الأديان السماوية

لم يكن نظام التعامل بالربا معروفا فى العصور القديمة التى كان يسودها نظام المقايضة أى تبادل السلع بالسلع ، فلم تدلنا آثار عصر الأسرات المبكر أى العصر السحيق الذى ينحصر فى ملوك الأسرة الأولى والثانية فى مصر القديمة على وجود هذا النوع من التعـامل بين الناس فى ذلك الوقت مما يدل على أن هذا النظام نشأ بعد ظهور النقود كأداة للتعامل بين الناس سواء فى المبادلات التجارية أو فى الشراء واستغلال المنافع وتقديم الخدمات .

فالحديث عن الربا اذن حديث نشأ بنشأة النقود وتداولها ، ذلك أنها الأداة الطيعة التى تمكن الانسان من قضاء حاجاته فى معظم حالاته المتباينة .

ومن المعلوم أن النقود انتشرت وشاع تداولها بين الناس حينما نشأت وترعرعت الحضارات الأولى التى قامت فى مصر وبابل وآشور وبلاد الاغريق وروما ولقد كان لـــكل من هذه الحضارات نقودها الخاصة بها والتى تختلف عن غيرها فى الحجم والنوع والقيمة ، الا أن أعظمها قيمة بلا ريب تلك المصنوعة من السبائك الذهبية وان اختلفت فى التسمية والوزن .

ومنذ ذلك الحين أعنى منذ قيام الحضارات الأولى وظهور النقود عرف نظام الربا فى المعاملات ٠

فاذا حاولنا أن نستعرض تاريخ الحضارات الأولى فى مصر وبابل وآشور وفينيقيا دلتنا الآثار التى بين أيدينا على أن هذه الشعوب قد انتشرت فيما بينها المعاملات التجارية فى الداخل وفى الخارج بين هذه الدول بعضها البعض ٠

أما المعاملات التجارية فى الخارج فقد كان يحكمها قانون عرفى موحد لا صلة له بالأديان الوثنية التى كانت تختلف باختلاف كل دولة داخلة فى دائرة التعامل ، وله ميزتان بالغتا الأهمية تتلخصان فى أنه يتحرر من الشكليات كلية ويحترم القوة الملزمة للعقود اذ أنها متصفة بحسن النية ٠

وهذا القانون سماه الرومان قانون الشعوب لاختلافه عن ذلك القانون المطبق فى مدينة روما على الرومان وحدهم . ويسمى بصفة عامة عند الرومان وغيرهم من الشعوب التى تتعامل به فى الشعوب المطلة على البحر الأبيض المتوسط بقانون التجارة الدولى الذى صقلته قبل غيره ضرورات التعامل التجارى الدولى واكسبته ذلك الطابع الدولى الذى اتسم به دون سواه ، ولم يعرف هذا القانون القروض بربا لأنه قائم على تجارة حاضرة ولو كان غير ذلك جليا كما فى حالة المعاملات التجارية داخل الدولة الواحدة كما سنوضحه فيما بعد ٠

ففى مصر القديمة مثلا سنت بعض القوانين لمحاربة الربا الفاحش، فلقد أصدر الملك بوخوريس فى القرن الثامن قبل الميلاد قانونا يحرم فيه الربا الفاحش الذى كان منتشرا فى ذلك الوقت وكان سعر الفائدة يصل احيانا الى ٣٣٪ اى الى الثلث تقريبا

ولقد ذكر ضرورة الغائه الفيلسوف سولون فى معرض ما قرره من وجوه الاصلاح فى مصر القديمة ٠

ولقد عرفه البابليون أيضا ونص عليه قانون حمورابى حوالى سنة ١٩٥٠ قبل الميلاد لتنظيم بعض العقود التجارية وهى القرض بفائدة ووديعة البضائع والشركة وصورة قديمة للوكالة بالعمولة وورد النص على حالة شخص يدفع الى آخر مبلغا من النقود لاستثماره نظير عمولة وبين الطرفين حساب يسجل حالة المعاملات بينهما .

وعثر على الواح كتبها احد رجال البنوك البابليون ورد فيهاوصف لعمليات البنوك فى ذلك العهد وهى تلقى الودائع نقودا او بضاعة والاقراض بفائدة والاقراض برهن .

وعرف كذلك عند الاغريق وعند الرومان حتى أن الدائن كان له من السلطة ما يخول له أسترقاق مدينة أو حبسه اذا لم يقم بالوفاء

وهذا ما دعا أفلاطون الى المناداة بتحريم الربا اطلاقا اذ جاء فى كتابه «روح القوانين» (لا يحل لشخص أن يقرض أخا بربا) . وما دعا ايضا ذلك الفيلسوف الأغريقى أرسطو أن يعلن باستنكار الفائدة الربوية بقوله .. (ليس منطق أقوى من ذلك الذى يقرر أن أبغض الاشياء هو الربا الذى يستدر الربح من المال ذاته) .

من هذا العرض التاريخى الموجز يتضح لنا ان الربا عرفته المدنيات القديمة وأنه حينما ذاع فى المعاملات بين الناس وعرف خطره تصدى لمحاربته الملوك الساهرون على مصلحة رعاياهم والحكماء والفلاسفة ، فمنهم من عمل على اقصائه من دائرة التعامل بين الناس ومنهم من أعلن استنكاره والمناداة بتحريمه لبغضه الى النفوس الكريمة ولمجافاته للروح الانسانية .

ولم يكن هناك دين سماوى أودعوة نبى بين هؤلاء الذين لم يعرفوا الا عبادة الأوثان ولم يكن هناك من دافع لمحاربة الربا سوى الفطرة السليمة والعقل المتزن الذى قدر أن هذا النظام من التعامل وليد الاثرة والانانية وأنه ما ينبغى له السيادة الاحينما تختفى القيم الانسانية والمثل العليا الرفيعة من دنيا الناس .

الربا والتـــوراة

وجاءت الأديان السماوية ومهمتها الأصلية استنكار ما عليه الناس من أوضاع غير انسانية ينبغى لها ان تزول وذلك بالحض على تغييرها ومحوها وتهيئة النفوس لاستقبال أوضاع أخرى بديلة عنها جديدة تسمو بهم عن الماديات وتبعدهم عن منطـــق الطين وتوضح لهم أن المعاملات المادية بينهم يجب أن تكون فى حد ذاتها وسيلة لا غاية ، وسيلة يشعر فيها المرء أنه ليس ملكا لنفسه فحسب بل هو وما يملك ملك لأخيه الانسان وأن الأسرة البشرية ينبغى أن تكون متعاونة متكافلة ومتآخية ، فيقضى بذلك على كثير من معانى الشر فى النفوس، فلا تكون هناك أثره ولا حقد ولابغض ولاحسد ولا من ولا أذى ولا يكون هناك الا حب وتراحم وتعاطف وايثار وتضحية وفداء .

هذه مهمة كل دين سماوى ، انتشار الخير ومحو آثار الشر ، وتقديم المثل العليا وعرضها على مفاهيم الناس ، ومحاولة انطباعها فى قلوبهم والقضاء على وسوسة النفس الشيطانية ، أو حصرها على الأقل فى دائرة ضيقة حبيسة مغلولة .

ومن البدهى أن تكون المعاملات الربوية فى مقدمة الأوضـــاع الرخيصة التى تعمل الأديان على اقصائها من معاملات الناس . فجاءت بعد اعلان التوحيد فى صدر منهاج كل دين من الأديان السماوية التى عرفتها الدنيا فى أزمانها المتلاحقة متمشية فى ذلك مع الفطـرة السليمة فطرة الله التى فطر الناس عليها ، محققة آمال هؤلاء الذين

نادوا بفطرتهم السليمة بضرورة تحريم الربا . فالتقى بذلك نداء المصلحين بأوامر السماء التى جاء بها المرسلون .

صحف ابراهيم والزبور :

ومما هو غير مختلف عليه أن الكتب السماوية المعروفة هى صحف ابراهيم عليه السلام ، وقد أشار اليها القرآن الكريم مقرونة بالتوراة فقال تعالى : « **ان هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى** » . والزبور الذى اقترن باسم داود عليه السلام ، وقد أشار اليه القرآن الكريم كذلك فى معرض الحديث عن الرسول فقال تعالى : « **وآتينا داود زبورا** » والتوراة التى جاء بها موسى عليه السلام والانجيل الذى جاء به عيسى عليه السلام مكملا به رسالة موسى ومؤكدا اياها . والقرآن الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت به رسالات السماء .

فأما ما جاءت به صحف ابراهيم وما جاءت به تعاليم وابتهالات الزبور فلم يكن فيها جميعا نص صريح بتحريم الربا وكل ماجاءت به آيات كلها تحث اجمالا على فعل الخير وترك الشر والزهد فى الدنيا والتسامح وتوحيد الاله الرب المعبود بحق .

فكانت هذه كافية وحدها الى بث معانى الخير فى النفوس وصقلها وحملها على اجتناب الشر وأهله .

التوراة :

أما التوراة التى انزلها الله سبحانه وتعالى فيها هدى ونور فهى رسالة كاملة بالنسبة للظرف الذى نزلت فيه والأمة التى جاءت من أجلها . فكانت أكثر تفصيلا وجاءت بتحريم الربا صراحة فى نص لايحتاج الى توضيح أو اجتهاد فى التأويل ، ذلك ان الربا الفاحش كان قد انتشر حتى أصبح نظاما قائما لا محيص عنه فى

معاملات الناس . جاء فى سفر حزقيال الأصحاح الثامن عشر الآية ٦ــ١٠ مايلى :

((والانسان الذى كان بارا وفعل حقا وعدلا لم يأكل على الجبال ـ ولم يرفع عينيه الى أصنام بيت اسرائيل ، ولم ينجس امـــرأة قريبه ، ولم يقرب امرأة طامثا ، ولم يظلم انسانا ، بل رد للمديون رهنه ولم يغتصب اغتصابا ، بل بذل خبزه للجوعان ، وكســـا العريان ثوبا ، ولم يعط الربا ، ولم يأخذ مرابحة ، وكف يده عن الجور ، وأجرى العدل الحق بين الانسان والانسان ، وســـلك فى فرائضى ، وحفظ أحكامى ، ليعمل بالحق فهو بار » .

وفى سفر الخروج أصحاح ٢٢ : ٢٥ جاء قول الرب :

((اقرضت فضة لشعبى الفقير فلا تكن كالمرابى ، لاتضعـــوا عليه ربا » .

وفى سفر اللاويين أصحاح ٢٥ : ٣٦ :

« فضتك لا تعط بالربا ، وطعامك لا تعط بالمرابحة ، أنا الرب الهك » .

وفى سفر نحميا أصحاح ٥ : ١٧ :

« هال النبى نحميا تفشى الربا بين الشعب اليهودى ، فجمعهم وطفق يوبخهم ، ثم أمرهم أن يردوا فى اليوم عينه كل ما أخذوه من الربا ، وختم كلامه مع الشعب اليهودى بتهديد الهى خطير حيث نفض حجره قدامهم وقال : **هكذا ينفض الله بيت المرابى** ، ثم قال أخيرا لنترك هذا الربا .

وجاء فى سفر المزامير : « **المؤمن لا يعط بربا** » .

يتبين مما تقدم ان التوراة جاءت بنصوص واضحة صريحـــة تحرم الربا الشائع فى ذلك الوقت تحريما كليا فى جميع صوره التى

عرفها الناس واصطلحوا عليها ، وجاءت النصوص وتناولت الربا بالتفصيل والتحديد وذلك لسببين هامين :

الأول : أن الربا كان يسود الدنيا فى ذلك الوقت وأصبح نظاما سائدا كالرق وغيره من سائر النظم التى كان يجب العمل على محاربتها ومحوها ٠

الثانى : ان اليهود كانوا فى مقدمة المرابين بل هم الذين كانوا يكونون الطبقة الموجهة للنظام الربوى لما عرف عنهم من الجشع والأنانية والحرص على المال والحياة وظلوا على هذه الحال حتى بعد نزول التوراة والانجيل والقرآن كما سيأتى ذلك كل فى موضعه ،

جاءت التوراة لتعلن ولتقرر ولتؤكد أن البر والحق والعدل فيمن لم يعط الربا ، ولم يأخذ مرابحة أى فيمن لا يقرض بربا أيا كان نوعه ، ولا يتعامل به مع غيره ، لا يعطى الناس ماله الى أجله الذى اجله ثم يأخذه بربا أيا كانت قيمة ذلك الربا ، ولا يأخذ من الناس مالا ثم يرده اليهم مضافا اليه ربا ، فليس من البر وليس من الحق وليس من العدل أن يسود هذا النوع من التعامل بين الناس ، بين الانسان وأخيه الانسان ، وان الذى يتعامل به قد خرج عن شرع الله فهو بذلك غير مؤمن ، وقد أنذره الله بخراب بيته **(هكذا ينفض الله بيت المرابى)** ٠ وهو فى نظر المؤمنين بشرع الله قد بعد عن حظيرتهم ، وجانب الحق والعدل ولم يعرف معانى البر ، واستحل بذلك مقت الله وسخط الناس ٠

ورغم ما سبق توضيحه بشأن الربا فى شريعة موسى عليه السلام لم يتورع اليهود عن أكل الربا بعد ان نهوا عنه بجانب أكل أموال الناس بالباطل وصدهم عن سبيل الله ٠

وظل التشريع قائما بالتحريم حتى جاء نبى الله عيسى عليه السلام واليهود لا يقيمون لتحريم الربا وزنا اذ أن رجال الدين

اليهودى فسروا هذه الاقوال الالهية التى تحرم الربا تحريما باتا حسب هواهم فقالوا مثلا : « ان الله حرم اعطاء الفضة بالربا ولم يحرم اعطاء الذهب » . وقالوا أيضا : « ان الله حرم اعطاء الربا لأبناء الدين اليهودى الواحد ولم يحرمه على الأجانب مفسرين النص القائل فى سفر اللاويين ٢٥ : ٣٥ : ـ « اذا افتقر أخوك وقصرت يده عنك فأعضدته غريبا أو مستوطنا فيعيش معك لاتأخذ منه ربا » . وفهموا منه أن غير الأخ أى غير اليهودى يفعلون به مايشاءون . . مما يؤكد أن نفوسهم جلبت على سوء الطوية والأنانية البشعة والتعصب الذميم والبغض والكراهية لما عداهم من بنى الانسان .

الربا والانجيـــل

وجاء ميلاد المسيح عليه السلام بعد قرون عديدة من ميلاد موسى عليه السلام ورسالته ، وكانت البشرية الحائرة التى ضاقت ذرعا باليهود وأفعالهم ومن سار مسيرتهم تتطلع الى منقذ ينقذها وهـاد يهديها سبل السلام ويخرجها من ظلمات الأوضاع الاقتصـادية والاجتماعية السائدة ، الى نور الهداية الربانية التى تقوم المعـوج وتعدل ما انقلب من أوضاع ، وتقف بجواد التشريع الموسـوى الصحيح الصريح تشد أزره وتؤمن جوانبه وتحافظ عليه وتثبته فى دنيا الناس بعد أن تغرسه فى قلوبهم غرسا أصيلا مبنيا على الايمان الخالص .

جاء عيسى عليه السلام ليقول للنـاس : لم آت لأنقض بل جئت لأكمل » . جاء لتكون رسالته امتدادا لرسالة موسى عليه السـلام وتوسعة لها وتفسيرا حقا لما حاول اليهود تفسيره من نصـوص التوراة حسب أهوائهم ، فبالرغم من النصوص الصريحة التى جاءت بها التوارة خاصة بتحريم الربا تحريما قاطعا كما سبق بيـانه ، فقد جاء المسيح عليه السلام ليؤكد ما سبق نزوله على لسان موسى عليه السلام ، بل انه ذهب الى أكثر من ذلك فيعلن أن الانسان اذا أقرض لأخيه الانسان مالا ثم أخذه ثانية بلا أرباح فانه يكون بذلك مخطئا اذا الواجب أن يتنازل عن قرضه احسانا منه وعطفا على أخيه الانسان الذى امتدت اليه يده المحتاجة .